قال العلامة سلامة القضاعي العزامي الشافعي في كتابه فرقان القرآن بين صفات الخالق وصفات الأكوان ص ١١٠-١١٥:

فلنتقل بك إلى معنى العبادة شرعاً، وأرجوا أن تعطي هذا المقام فضل تنبيه، فإن الغلط فيه هو المزلقة الكبرى والمزلة العظمى، التي استحلت بها دماء لا تحصى وانتهكت بها أعراض لا تعد، وتقاطعت فيها أرحام أمر الله بها أن توصل، عياذاً بالله من المزالق والفتن، ولا سيما فتن الشبهات.

فاعلم أنهم قد فسروا العبادة بالإتيان بأقصى غاية الخضوع، وأرادوا بذلك المعنى اللغوي، أما معناها الشرعي فهو أخص من هذا كما يظهر للمحقق الصبار على البحث من استقراء مواردها في الشرع، فإنه الاتيان بأقصى غاية الخضوع قلباً باعتقاد ربوبية المخضوع له، أو قالباً مع ذلك الاعتقاد –وأو فيه للتقسيم- فإن انتفى ذلك الاعتقاد لم يكن ما أتى به من الخضوع الظاهري من العبادة شرعاً في كثير ولا قليل مهما كان المأتي به ولو سجوداً.

ومثل اعتقاد الربوبية اعتقاد خصيصة من خصائصها، كالاستقلال بالنفع والضر، وكنفوذ المشيئة لا محالة ولو بطريق الشفاعة لعابده عندالرب الذي هو أكبر من هذا المعبود.

وإنما كفر المشركون بسجودهم لأوثانهم ودعائهم إياهم وغيرهما من أنواع الخضوع لتحقق هذا القيد فيهم، وهو اعتقادهم ربوبية ماخضعوا له، أو خاصة من خواصها كما سيأتيك تفصيله.

ولا يصح أن يكون السجود لغير الله فضلاً عما دونه من أنواع الخضوع بدون هذا الاعتقاد عبادة شرعاً، فإنه حينئذ يكون كفراً، وما هو كفر فلا يختلف باختلاف الشرائع ولا يأمر الله عزوجل به ﴿ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾ ﴿ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ﴾ وذلك ظاهر إن شاء الله.

وها أنت ذا تسمع الله تعالى قد قال للملائكة ﴿ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ﴾ وقال: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾ وقال: ﴿ءَأَسۡجُدُ خَلَقۡتَ طِينٗا﴾ والقول بأن آدم كان قبلة قول لا يرضاه التحقيق ويرفضه التدقيق في فهم الآيات كما ينبغي أن تفهم.

فإن قصر فهمك عن هذا فهذا نبي الله يعقوب وامرأته وأولاده الأحد عشر قال الله فيهم ﴿وَخَرُّواْ سُجَّدٗا﴾ أي ليوسف ﷺ قال الحافظ ابن كثير في تفسيرها: أي سجد له أبواه وإخوته الباقون وكانوا أحد عشر رجلاً، وقد كان هذا سائغاً في شرائعهم إذا سلموا على الكبير يسجدون له، ولم يزل هذا جائزاً من لدن آدم إلى شريعة عيسى- عليه السلام، فحرم هذا في هذه الملة، وجعل السجود مختصاً بجناب الرب تعالى، هذا مضمون قول قتادة وغيره، وفي الحديث أن معاذاً قدم الشام فوجدهم يسجدون لأساقفتهم فلما رجع سجد لرسول الله ﷺ فقال ماهذا يامعاذ فقال إني رأيتهم يسجدون لأساقفتهم وأنت أحق أن يسجد لك قال: «لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها» وفي حديث آخر أن سلمان لقي النبي ﷺ في بعض طرق المدينة –وكان سلمان حديث عهد بالاسلام- فسجد للنبي ﷺ فقال: «لا تسجد لي ياسلمان واسجد للحي الذي لا يموت»

والغرض أن هذا كان جائزاً في شريعتهم. ا.هـ وقال الامام أبو جعفر في تفسيرها نحواً من هذا.

وقد علمت أن ماهو كفر لا يختلف باختلاف الشرائع ولا يأمر الله به في حين من الأحيان فلم يكن سجود الملائكة لآدم ولا السجود ليوسف عليهما الصلاة والسلام مع خلو الساجدين من اعتقاد خصيصة من خصائص الربوبية بمن سجدوا له كفراً، بل هو من الملائكة عبادة لله الذي أمرهم سبحانه، وممن سجدوا ليوسف تحية جائزة، ونسخ الجواز في شريعتنا.

وإنما حكم العلماء بالكفر على من سجد لشمس أو قمر أو وثن من أجل أنه أمارة على الكفر الذي هو إنكار ماعلم من الدين بالضرورة كما حكموا بالايمان وهو معنى قلبي كما علمت لمن نطق بالشهادتين من أجل أنه دليل عليه، لا لأن الأول بمجرده كفر والثاني بمجرده إيمان.

فإن تعسر عليك فهم هذا وهو ليس بعسير إن شاء الله تعالى فانظر إلى نفسك فإنه قد يقضي عليك أدبك مع أبيك واحترامك له أن لا تسمح بالجلوس أو الاضطجاع بين يديه فتقف أو تقعد ساعة أو فوقها، ولا يكون ذلك منك عبادة له، لماذا؟ لأنه لم يقارن هذا الفعل منك اعتقاد شيء من خصائص الربوبية فيه، وتقف في الصلاة قدر الفاتحة وتجلس فيها قدر التشهد وهو قدر دقيقة أو دقيقتين فيكون ذلك منك عبادة لمن صليت له.

وسر ذلك هو أن الخضوع الممثل في قيامك وقعودك يقارنه اعتقادك الربوبية لمن خضعت له عز وجل.

وتدعو رئيسك في عمل من الأعمال أو أميرك أن ينصرك على باغ عليك أو يعينك من أزمة نزلت بك وأنت معتقد فيه أنه لا يستقل بجلب نفع أو دفع ضر، ولكن الله جعله سبباً في مجرى العادة يقضي على يديه من ذلك مايشاء فضلاً منه سبحانه فلا يكون ذلك منك عبادة لهذا المدعو وأنت على ماوصفنا.

فإن دعوته وأنت تعتقد فيه أنه مستقل بالنفع أو الضر أو نافذ المشيئة لا محالة كنت له بذلك الدعاء عابداً، وبهذه العبادة أشركته مع الله عز وجل، لأنك قد اعتقدت فيه خصيصة من خصائص الربوبية، فإن الاستقلال بالجلب أو الدفع ونفوذ المشيئة لا محالة هو من خصائص الربوبية.

والمشركون إنما كفروا بسجودهم لأصناهم ونحوه لا عتقادهم فيها الاستقلال بالنفع أو الضر، ونفوذ مشيئتهم لا محالة مع الله تعالى ولو على سبيل الشفاعة عنده، فإنهم يعتبرونه الرب الأكبر ولمعبوداتهم ربوبية دون ربوبيته، وبمقتضى مالهم من الربوبية وجب لهم نفوذ المشيئة معه لا محالة، ويدل لما قلنا آيات كثيرة كقوله تعالى ﴿ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴾ وقوله ﴿ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴾ والاستفهام في الآيتين إنكاري على سبيل التوبيخ لهم على ما اعتقدوه وحكى الله عن قوم هود قولهم له عليه السلام ﴿ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ﴾ وقوله لهم ﴿ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ﴾ الآية وكقوله تعالى موبخاً لهم يوم القيامة على ما اعتقدوه لها من الاستقلال بالنفع ووجوب نفوذ مشيئتها ﴿ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴾ وقولهم وهم في النار يختصمون يخاطبون من اعتقدوا فيهم الربوبية وخصائصها ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ فانظر إلى هذه التسوية التي اعترفوا بها حيث يصدق الكذوب ويندم المجرم حين لا ينفعه الندم، فإن التسوية المذكورة إن كانت في إثبات شيء من صفات الربوبية فهو المطلوب، ومن هذه الحيثية شركهم وكفرهم، لأن صفاته تعالى تجب لها الوحدانية بمعنى عدم وجود نظير لها في سواه عزوجل، كما مر تفصيلاً في المقصد،

وإن كانت التسوية في استحقاقها للعبادة فهو يستلزم اعتقاد الاشتراك فيما به الاستحقاق وهو صفات الألوهية أو بعضها، وإن كانت في العبادة نفسها فهي لا تكون من العاقل إلا لمن يعتقد استحقاقه لها كرب العالمين، تعالى الله عما يشركون، وكيف ينفى عنهم اعتقاد الربوبية بآلهتهم وقد اتخذوها أنداداً وأحبوها كحب الله كما قال تعالى فيهم ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾ والأنداد جمع ند وهو على ما قاله أهل التفسير واللغة المثل المناوي، فهذا ينادى عليهم أنهم اعتقدوا فيها ضربا من المقاومة للحق تعالى عما يقولون.

أما قوله تعالى فيهم: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ﴾ ونحوه فليس معناه أنهم لا يثبتون لآلهتهم ربوبية ولا خاصة من خواصها، بل معناه أنهم إذا نوقشوا اعترفوا بالحق الذي فطر الله عليه النفوس، ودلت عليه الكائنات، ثم ما أسرع مايرجعون إلى اعتقاد الربوبية الباطلة في آلهتهم، فينتكسون ويرتكسون كما قال عنهم في آية أخرى: ﴿ يَعْرِفُونَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ وكقوله تعالى في طائفة منهم ﴿كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا ﴾ وليس ذلك بعجيب ممن اتخذ إلهه هواه، وإنك لتشاهد بين أهل الأهواء من تناقشه في بدعته ويصغي إليك فيقتنع بالحجة وقت المناقشة ويعترف بمخالفته للحق وتظهر فيه مخايل الإنصاف، فإذا انقضى المجلس عاد إلى ما ألف من الهوى وارتكس في بدعته كأن لم يكن بينك وبينه نقاش إلا من رحم الله وقد رأينا ذلك كثيراً في كثير ممن لفينا من أهل الأهواء نسأل الله العافية بفضله.

على أنه لو سلم أنهم لم يعتقدوا لألهتهم خلقاً ولا رزقاً ولا تدبيراً للأمر، فهم يعتقدون فيها غير ذلك من خصائص الألوهية، وهو وجوب نفوذ مشيئتها، فإنهم يرون أن شفاعتها مقبولة لا ترد وليست متوقفة على إذنه تعالى عما يقول الجاهلون به علواً كبيراً، ولذلك قال الله تعالى في سيدة آي القرآن رداً على هذا الزعم: ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ قال القاضي ناصر الدين البيضاوي في تفسيرها: بيان لكبرياء شأنه ولأنه لا أحد يساويه أو يدانيه يستقل بأن يدفع مايريده شفاعة واستكانة فضلاً أن يعارضه عناداً ومناصبة.اهـ فانظر إلى قوله «يستقل بأن يدفع مايريده شفاعة» تجده صريحاً في اعتقاد وجوب مشيئتها معه عزوجل، ووجوب نفوذ المشيئة من خصائص الربوبية كما لا يخفى.

وهذا النوع من الشفاعة هو الشفاعة الشركية وهي التي أبطلها القرآن، فإن اعتقادها كفر، كما قال تعالى ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ﴾ الآيتين فانظر إلى قوله ﴿ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ وكما قال الله تعالى ﴿ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ﴾

أما الشفاعة التي يعتقدها أهل التوحيد وجاء بها الكتاب والسنة فهي بعيدة من هذا بعد الإيمان عن الكفر والنور عن الظلمة، وهي دعاء الشافع للمشفوع فيه فيستجيب بفضله لمن شاء، وهو معنى الاستثناء في قوله تعالى ﴿ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ والمراد هنا بالإذن الرضا كما قال في الية الأخرى ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ ﴾ وكقوله: ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ ﴾

وبهذا يتبين لك الفرق بين ما أثبته القرآن من الشفاعة وبين ما نفاه منها، وهو ما كان بغير إذنه ورضاه، جل أن يكون في ملكه إلا ما يشاء، أما الشفاعة بإذنه ورضاه من عباده المصطفين الأخيار لعصاة الموحدين فهي جائزة بل واقعة لثبوتها بالتواتر وليس فيها محذور، واعتقادها من الدين، فإنها من باب الدعاء وهو تعالى يستجيب للذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله.

وعسى أن يكون قد وضح لك إن شاء الله ما هو معنى العبادة شرعاً.